

معاجم مصطلح الحديث النبوي

- نشأتها ومناهج تصنيفها -

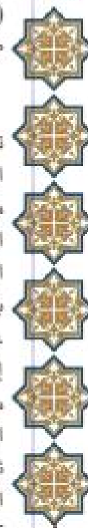
(١ / ٢)



د. خالد فهمي - مصر

يجمع اللغويون على اختلاف توجهاتهم وبيئاتهم وأزمانهم على أن الاسلام انتقل باللسان العربي وبعلومه نقلة جبارة غير مسبوقة. وهو ما يعرف في الدرس اللغوي باسم الأسباب الإسلامية أو الألفاظ الإسلامية. حتى استقر أن الإسلام هو المسؤول الأول عما يسمى في دراسات علم اللغة التاريخي باسم (التطور العمدي) أو، المقصود لدلالات بعض الألفاظ. يقول ابن فارس اللغوي في كتابه الصاحبي (ص 38) «كانت العرب في جاهليتها على إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت. وشرائع شرعت، وشرائط شرطت.. فهذا الذي سمي نقل ألفاظ عن مواضع إلى مواضع هو مقصودنا بأن الإسلام هو المسؤول أولا عما جد على المعجم العربي من المصطلحات، ولاسيما مصطلحات العلوم الشرعية ومنها مصطلحات الحديث النبوي الشريف.

وهو ما تنبه إليه السيوطي في المزهر (١)، وأبو حاتم الرازي (٢) وغيرهما من القدامى. وجرجي زيدان في (اللغة كائن حي) ص ٣٦ ود. علي عبدالواحد وافي في (فقه اللغة) ص ١١٩ ، ود. مازن المبارك في (نحو وعي لغوي) ص ١٠٨ د. عبدالصبور شاهين في (العربية لغة العلوم والتقنية) ص ٦٤ ، و د. رمضان عبدالتواب في (دراسات وتعليقات في اللغة) ص ٣٩ وغيرهم كثير جدا!!



نشأة التأليف في مصطلح الحديث

ترجع العناية بمصطلحات الحديث النبوي الشريف إلى مرحلة متقدمة جدا من عمر العلم الإسلامي، لدرجة يمكن القول معها: إن بدايات العناية بقبول الحديث ورده، وهو لب علم مصطلح الحديث، ترجع إلى عهد النبي ﷺ فيما ورد عنه من النهي عن الكذب عليه، ومن التحوط في الرواية عنه.

ثم ظهرت بدايات من هذه العناية في عصر الصحابة فيما تمثل في استدراك بعضهم على بعض، بسبب من تفاوتهم رضي الله عنهم في الرواية عن النبي ﷺ، وحتى صنف في مستدركات عائشة رضي الله عنها- بحكم وثوق علاقتها بالنبي ﷺ - تصانيف خاصة (٣).

ثم زادت العناية بالتدقيق في قبول الأحاديث مع أحداث الفتنة في أواخر عهد عثمان رضي الله عنه وما بعده، ومع ازدياد النشاط الكلامي في الأوساط العلمية ولا سيما في العراق، فيما بعد.

وهذا التنامي في النشاط العلمي الكلامي هو المسؤول في نظرنا عن استقلال التأليف في مصطلح الحديث النبوي الشريف، ليتوصل من خلال معرفته إلى القدرة على معرفة المقبول من المردود من أحاديث المصطفى ﷺ، وإلى شيء من هذا فطن أ.د. محمود الطحان في تيسير مصطلح الحديث ص ٩ «وامتثالا لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ فقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتثبتون في نقل الأخبار وقبولها، ولاسيما إذا شكوا في صدق الناقل لها، فظهر بناء على هذا موضوع الإسناد، وقيمته في قبول الأخبار أو ردها، فقد جاء في مقدمة صحيح مسلم (١) عن ابن سيرين: «قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم».

وهذه النشأة الدينية التي ترمي إلى حماية الحديث النبوي الشريف من وضع الوضاعين تدعم القول بالأثر الإسلامي في نشأة هذه المصطلحات الحديثية.

أشكال العناية بمصطلحات الحديث النبوي الشريف

تنوعت أشكال العناية بالمصطلحات الحديثية، وظهرت تجليات هذا التنوع كما يلي:

أولا: العناية بمصطلحات الحديث في مصنفات علوم الحديث:.

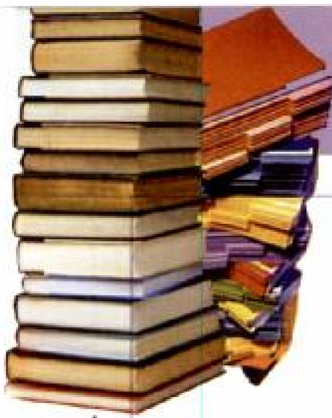
كان من الطبيعي أن تظهر أولى أشكال العناية بالمصطلحات الحديثية، وتفسير المراد منها، وتمييز بعضها من بعض في المؤلفات التي ألفها أهل العلم لشرح مسائل علم الحديث. كما نلاحظ فيما يلي:

الكتب الكبيرة

١-كتاب معرفة علوم الحديث: للحاكم النيسابوري ٤٠٥هـ (اعتنى به د. معظم حسين، المكتب التجاري بيروت سنة ١٩٣٥م)، وهو مرتب على أنواع حيث يحرص في مقدمات كل نوع على تعريف المصطلح والتمييز بينه وبين غيره مما يشتبه به، كقوله (ص ٢٧): «المنقطع من الحديث: غير المرسل» ثم يفيض في تعريفه وبيان أقسامه.

٢-مقدمة ابن الصلاح ٦٤٣ هـ لتحقيق د. عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) دار المعارف، بالقاهرة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م) وهو ممن اعتنى عناية ظاهرة بشرح معاني المصطلحات الحديثية في مقدمات الأبواب. بحيث يمكن أن نقرر في اطمئنان أن ما ورد من تعاريف للمصطلحات في مقدمات الأبواب في هذا الكتاب يمكن أن يمثل معجما صغيرا عند تجريده. ومن أمثلة تعريفاته قوله (ص ٥٠٦) «التابعي من صحب الصحابي».

٣-الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي ٤٦٣هـ تحقيق د. محمد رأفت سعيد، دار الوفاء ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م ثم أخرجه د. محمود الطحان بمكتبة المعارف بالرياض ١٤٠٢هـ ١٩٨٣م) حيث كان يعرف في مقدمات بعض فصوله بعض المصطلحات الحديثية، كما فعل مع ذكره لأفضل أنواع القراءة على المحدث.



الطحان ١،٢٨١ (الباب ١٦).

٤- الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ٤٦٣هـ(اعتنى به محمد الحافظ التيجاني وعبدالحليم محمد عبدالحليم وعبدالرحمن حسن محمود، دار الكتب الحديثة، القاهرة ١٩٧٢م) حيث كان يعنى بتحرير معاني المصطلحات الحديثية في مفتتح أبواب الكتاب كما في حديثه عن التدليس (ص ٥٠٨) الذي يقول فيه: «أدنى ما يكون منه أن يرى الناس أنه سمع ما لم يسمع».

٥-التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، للحافظ العراقي ٨٠٦هـ (تحقيق عبدالرحمن محمد محمد عثمان، دار الفكر العربي، بلا تاريخ!).

وقد زاد الحافظ فبين مصدر التعريف الثابت عند ابن الصلاح، وعلق على التعريف موضحا ومبينا فيقول في التعليق على تعريف التابعي السابق ص ٣١٧ هو من تعريف الخطيب، وبين أن الإطلاق مخصوص بالمتابعة بإحسان، وبين بعض المعلومات الصرفية بأن الواحد من التابعين يسمى: تابعا وتابعيا، إلى غير ذلك من المعلومات التي تقترب بهذا الجهد من مفهوم المعجمية المعاصرة في بعض أبوابها.

٦- تدريب الراوي شرح تقريب النووي، للسيوطي، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، دار الكتب الحديثية، القاهرة، سنة ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م. وهو يعنى بتعريف المصطلح في مدخل الباب من مثل تعريفه لمصطلح الحسن ١،١٥٣ بأنه «هو ما عرف مخرجه واشتهر رجاله» وهذا تعريف الأصل الذي هو التقريب ثم يأتي السيوطي في شرحه فيقر التعريف ويزيد حدا صادقا على الصحيح أيضا.

٧- الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، للقاضي عياض ٥٤٤هـ، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس ١٩٨٧م. وهو يجمع في مقدمة كل باب المصطلحات الأساسية ثم يعود فيعرفها، من مثل قوله في تعريف مصطلح الخط وهو من مصطلحات الأخذ (ص١١٦): «وهو الوقوف على كتاب بخط محدث مشهور يعرف خطه ويصححه وإن لم يلقه ويسمع منه، أو لقيه ولكن لم يسمع منه كتابه هذا».

فهذا النوع من مؤلفات علوم الحديث اعتنت بشروح المصطلحات باعتبار هذه العناية من لوازم التأليف ومن مداخله التي يكمل بها.

المختصرات في علوم الحديث

وقد اعتنت هذه المختصرات ببيان معاني المصطلحات مما يقترب بهذه المصطلحات من مفهوم المعاجم الذي نسعى إلى تحريره، وهو ما قاد واحدا من أشهر اللغويين المعاصرين وهو د. رمضان عبدالتواب (رحمه الله) إلى اعتبار بعض هذه المختصرات معاجم مصطلحات خاصة بمصطلح الحديث النبوي الشريف.

١- التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، للنووي ٦٧٦هـ نشره عبدالله عمر البارودي، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م حيث مفتتح النووي كل فصل بالنص على تعريف المصطلح أو بيان معنى الحد يقول مثلا في تعريف الصحيح (ص ٢١): «حده: وهو ما اتصل سنده بالعدول وإذا قيل من غير شذوذ ولا علة وإذا قيل صحيح فهذا معناه لا أنه مقطوع به، وإذا قيل غير صحيح فمعناه لم يصح إسناده» والشاهد هنا التفات النووي إلى أهمية البدء ببيان الحد أو التعريف.

٢- المختصر في علم أصول الحديث النبوي، لابن النفيس تحقيق د. يوسف زيدان، الدار المصرية اللبنانية، بالقاهرة ١٤١٢هـ ١٩٩١م وظهرت عناية ابن النفيس بشروح المختصر من مفهوم المعجم المختص الذي نسعى إلى تحرير معناه، وهو ذكر المعني اللغوي بين يدي المعنى الاصطلاحي.

ومن الأمثلة على ما نقرره (ص ١٠٥): «التواتر في اللغة هو التتابع، وهو ورود شيء بعد آخر. وأما في الاصطلاح (أي في اصطلاح الحديث النبوي الشريف) فإن الخبر المتواتر هو: خبر أقوام بلغوا في الكثرة إلى حد يمنع العقل من توافقهم في ذلك على الكذب».

٣- الاقتراح في بيان الاصطلاح، لابن دقيق العيد٧٠٢هـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

وقد اعتنى ببيان معاني المصطلحات الحديثية فقدمها في أوائل الأبواب والفصول في مثل قوله ص ٢٣ «المدرج: وهي ألفاظ تقع من بعض الرواة متصلة بلفظ رسول الله ﷺ. ويكون ظاهرها أنها من لفظه، فيدل دليل على أنها من ألفاظ الراوي».

٤-الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير ٧٧٤هـ (وهو اختصار لمقدمة ابن الصلاح) تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، دار التراث، بالقاهرة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

وقد اعتنى كغيره من أصحاب المختصرات بتعريفه المصطلحات الحديثية في مقدمات الأبواب والفصول، وزاد أمرا آخر جديدا وهو الاستقصاء في تعريفات المصطلح الواحد مما ترى له مثلا في تعريف مصطلح الحسن حيث أورد تعريف الترمذي ثم أورد (ص ٢٢) تعريفات أخرى للحسن.

٥- التذكرة في علوم الحديث، لابن الملقن ٨٠٤ هـ، نشرها علي حسن علي عبد الحميد، دار عمار، الأردن سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

وهذه التذكرة أقرب وفاء لمفهوم المعجم حيث اعتنت عناية فائقة بتعريف المصطلحات موزعة على الموضوعات ومن أمثلة تعريفاته قوله ص ١٤«المسند: وهو ما اتصل إسناده إلى النبي ﷺ، ويسمى موصولا أيضا».

٦- المختصر في أصول الحديث، للجرجاني ٨١٦هـ تحقيق د. فؤاد عبدالمنعم أحمد، دار الدعوة، الإسكندرية ١٤٠٣هـ ونشره أيضا د. مصطفى أبو سليمان الندوي، مكتبة نزار مصطفى الباز بمكة المكرمة ١٤١٤هـ.

وهو كابن الملقن كان وفيا لمفهوم المعجم حيث اقتصر في الغالب على تعريف المصطلحات في المقام الأعلى، وإن اعتنى عناية قليلة ببعض التقسيمات والآراء الخلافية، والتفصيلات في المسائل.

٧-شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، لابن حجر العسقلاني ٨٥٢هـ نشره في مطبعة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ١٣٥٢هـ ١٩٣٤م ثم حققه محمد عوض بمكتبة الغزالي بدمشق ومؤسسة مناهل العرفان ببيروت سنة ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

وقد ظهر من مقدمة الكتاب موجه العناية إلى شرح اصطلاح علم الحديث ومن أمثلة تعريفاته قوله في تعريفه مصطلح الوجادة (ص ١٤٠) وهو عبارة عن مصطلحات تحمل العلم وأخذه: «وهي أن يجد بخط يعرف كاتبه فيقول وجدت بخط فلان». وهذا الكتاب نشر أيضا بعنوان «نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» بتحقيق



د.عبدالسميع الأنيس وعصام الحرستاني بدار عمار بالأردن ١٤١٩هـ ١٩٩٩م وكذلك نشره بعنوان (شرح نزهة النظر على نخبة الفكر) د. مصطفى أبو سليمان الندوي، بمكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤١٧هـ.

وهي جميعا تخالف - باستثناء طبعة عبدالسميع الأنيس - أصول نشر الكتب التراثية!

٨- قفوة الأثر في صفوة علم الأثر، لابن الحنبلي، تحقيق عبدالفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، بحلب، ١٤٠٨هـ ومن أمثلة عنايته بتعريف المصطلحات (ص ٤٧): «العزيز: ما لم يروه أقل من اثنين عن أقل منهما، بأمر رواه اثنان عن كل من اثنين وهكذا».

٩- تحقيق المختصر من مصطلح الأثر للعجمي الشنشوري ٩٩٨م، تحقيق محمد أحمد بدوي، ومراجعة أحمد حسن جابر، مجلة الأزهر، ربيع الآخر ١٤٠٥هـ

١٠- بلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب، للزبيدي صاحب تاج العروس ١٢٠٥هـ تحقيق عبدالفتاح أبي غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ١٤٠٨هـ.

١١- منحة المغيث في علم مصطلح الحديث لحافظ حسن المسعودي، الحلبي ١٨٦هـ ١٩٦٧م.

المراجع

١- المزهر في علوم اللغة، للسيوطي ١/٢٩٤ وما بعدها.

٢- الزينة في الكلمات الإسلامية ١/٥٦

٣- انظر: الاجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، للزركشي تحقيق د. رفعت فوزي، مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

وعين الإصابة في استدراك عائشة على الصحابة، للسيوطي، تحقيق عبدالله محمد الدرويش مكتبة العلم، بالقاهرة، سنة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

نقطة الضوء

إيمان القدوسي - مصر

كنت في زيارة بصحبة زوجي لأحد أقاربنا لإجرائه جراحة في أحد المستشفيات، وهناك قابلناه، كان رجلا مصرياً صميماً وجهه بلون طمي النيل وقد حفرت السنون والأيام معالمها فيه فبدا أكبر من عمره، كان في حالة من القلق والتوتر تكاد تفتت جسده إلى ذرات، عندما علمت أن ابنه الوحيد مصاب في حادث وتجرى له الآن جراحة دقيقةتذكرت قول الله تعالى عن أم سيدنا موسى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به﴾ (القصص-١٠).

لو شق أحد عن قلب هذا الرجل في تلك اللحظة لوجده فارغاً من كل شيئ إلا ابنه، اقترب فجأة من زوجي وقال له في ضراعة فتت الأكباد (تبدو رجلا صالحا مصلياً ياسيدي، أرجوك أن تدعو الله أن ينجي ابني ويعيده لي سالما، لقد كان اليأس باديا على وجه الطبيب وهو يقول لي (ادعي له).

دعا زوجي بما قدر الله ودعوت أنا أيضاً للولد، ثم حاول أن يهدئ من روع الرجل وسأله لماذا لا تدعو أنت؟ دعوة الأب أفضل، وهي مستجابة بإذن الله.

قال الرجل في ذلة وانكسار، وفي لحظة مكاشفة نادرة في سلوك البشر (أخشى ألا يستجيب الله لي، بسبب ما اقترفته يداي في حق شباب في نضارة وبراءة ولدي) سأله زوجي (ماذا كنت تفعل؟)

قال الرجل في اعتراف تطهيري (أنا عبد مأمور، لم يكن من حقي الاعتراض، وكنت مجبراً على تنفيذ الأوامر، أنا شاويش في مصلحة السجون، وكنت وغيري ننفذ أوامر الضرب والإيذاء للشباب المعتقلين).

قال له زوجي، هناك حديث لرسول الله ﷺ عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة وكانوا من الذين خلطوا عملا صالحاً بآخر سيئاً، وعندما توسل كل منهم بأفضل عمل خير قصد به وجه الله تعالى فرج الله عنهم كربهم.

فكر الرجل قليلاً ثم قال: (ربما يكون ذلك اليوم من شهر رمضان منذ عدة أعوام، جاءت مجموعة من الشباب المعتقلين وكان الضابط المكلف بهم صخري القلب، أمر بإدخال الماء لهم في وقت الظهيرة فلم يشربوا بسبب الصيام وأخذه من عندهم وقت الافطار، وهكذا مر يومهم الأول بلا طعام ولا شراب، وجاء اليوم الثاني وعلمت أنه ينوي تكرار الفعل نفسه معهم، خرجت أمام السجن حيث تجلس (عطيات) تقلي البطاطس والباذنجان وحكيت لها الموضوع وقلت إنني أنوي تهريب الطعام والشراب لأولئك الفتية فتعاطفت معي إلى حد البكاء، وقالت عندي الكثير من الباذنجان سأعده لك وبعض البطاطس، وذهبت أنا لشراء الخبز والجرجير، ووضعت كل ذلك في جوال، ودخلت به السجن متسللا أثناء الافطار، كاد قلبي يتوقف مع إحساسي بأي حركة بجانبي حتى لو كانت قطة عابرة، خوفا من انكشاف أمري، وسلمت المعتقلين الطعام وجركن مياه، وظللت رائحا غادياً أحرس المكان من دون ان أتناول طعامي حتى انتهوا وأخذت منهم الجوال والجركن، وبسرعة ذهبت لمكتب الضابط وجمعت بقايا طعامهم وعلب العصير الفارغة في الجوال، وحدث ما توقعت قابلني الضابط، وسألني ماذا في الجوال ففتحته وقلت بقايا طعام البشوات كنت أنظف المكتب، فرمقني بعيني صقر وقال (ثمة أمر فيك لا يريحني، تبدو مرتبكاً مريباً، ثم بصوت هادر (غور من وشي) وبعدها نقلني على البوابة).

الاعتقال الطويل بلا جريرة ولا محاكمة ظلم شديد، أما معاملة المعتقلين بالضرب والإيذاء والمنع من الطعام والشراب فهو ظلم أشد، ولكن بعض المعتقلين كانت لهم سلوكيات هي التي أدت لاشتعال الفتنة التي خسر كل أطرافها وهي سلوكيات تخرجهم من دائرة الأبيض الناصع، وهذا الشاويش الذي قابلناه فإن ذلته وانكساره بين يدي الله وندمه على ذنبه وما فعله في ذلك اليوم كل ذلك يخرجه من دائرة الأسود القاتم.

في كل إنسان نقطة ضوء وبقعة نور لو اجتهد في تتبعها وتنميتها اكتملت إنسانيته.